ارثا دينيا فحسب . انه تواصل تاريخي وكفاح مستقبلي . كان النبي محمد يعد الشهداء بالجنة اذا سقطوا في معركة الدعوة . وكان المسيح نفسه شهيدا . والعربي وهو يقاتل غزاة العصر من الاتراك حتى الصهيونيين ، لا يذهب الى الموت لتسديد ضريبة او طاعة لوعد . ان هذا الذهاب هو الاختيار الحر الوحيد — الذي بقي له — لتحقيق الانسجام الكلي بالارض ، واعلان جدارته بها . واول شروط هذه الجدارة هي الكرامة .

وقد توفرت معالم التطابق بين الموت والحياة على ارض فلسطين بشكل ناصع . انه ليس موت الفناء والنهاية . انه تجلي الانبعاث . الشعر خاصة يلتحم برمز الصليب الذي يتحول الى قطعة سلاح ، الصليب الفعال . قطعة العذاب البشري الطويل التي انتقلت من مشاهدة المذبحة الى مقاومتها . وهكذا كان الموت الفلسطيني العربي سياقا للبحث عن الحياة ، او افتتاحية لبداية الانسان الجديد ، لان هذا الموت ليس حلا لمشكلة الحياة الشاقة ، لا هو موت ذهني ولا هو تآكل الاعضاء من الخمول والسأم . انه طريقة في السفر للبحث عن الجانب الحي في الحياة . او هو فداء لتخليص الانسان من الموت في الحياة الى الحياة في الموت .

وهذا ما أصاب الفلسطينيين . .

وقبل أن أواصل سرد قصتي ، دعوني أرسم جغرافية هذا البلد — الامرأة ، التي تحولت بعذاب لا حدود له الى الحلم الممتاز لابطال وشخصيات وهموم الادب العربي الحديث . واحتلت — بعدما احتلوها — وسط اللوحة الدامية في أدبنا . وصارت عشيقة العشاق المعذبين ، وأم الضحايا ، وقلب المكان ، وحاملة الموت والانبعاث ، وأخت المقاتلين والمدافعين ، وجارة السماء . لن نفهم الادب العربي الحديث — ادب مرحلة الانتقال ، ادب الرؤيا الحديثة ، الا اذا تعرفنا على هذه الجميلة الاسيرة : فلسطين . احفظوا هذه الاماكن في الفقرة التالية لتتعرف على واحدة من أجمل خرائط العالم : « ان الرقصة الجنسية التي يمارسها البحر الابيض المتوسط مع خاصرة جبل الكرمل ، في الوسط ، تنتهي بولادة بحيرة طبريا ، في الشمال . وهناك بحر سموه البحر الميت لانه ينبغي ان يموت شيء في هذه الجنة لكي لا تصبح الحياة مملة . ومن شدة ما ازدحم الجليل الاعلى بالغابات ، كان لا بد ان تبرهن القدس على ان الصخور قادرة على امتلاك حيوية اللغة ، هذا هو وطني » .

هذا هو شكلها الجغرافي . ولكنها ليست لنا لانها مجرد بلاد جميلة الى حد القتل . انها لنا لانها ، ببساطة ، لنا . لان سفر تكويننا بدأ فيها ، ولاننا ولدنا فيها . قبل ربع قرن من الزمان تمكنت الصهيونية ، بالتواطؤ مع الانتداب البريطاني ، وبخيانة الرجعية العربية ، من اقتلاع شعب فلسطين من وطنه التاريخي والواقعي وشردوه خارج هذا المكان . . خارج الانسانية . وما زال يعيش في الشتات وفي المخيمات . وما زالت أسلحة الموت الصهيونية والامبريالية تلاحقه في منفى البؤس للقضاء عليه ولابادته ، لصيانة أمن الاحتلال الاسرائيلي من مطالبة الحق ، ولكي تشرع الصهيونية جريمتها الكبرى بمرور الوقت وبسيطرة الامر الواقع .

لم يحدث لشعب من شعوب آسيا وافريقيا مثل هذا البؤس ، مثل هذا المصير . ان شعب فلسطين يتعرض لعملية ومحاولة الغاء من الوجود ، ومن دفتر القانون الدولي ، ومن الضمير العالمي . كيف يحدث هذا في النصف الثاني من القرن العشرين ! في الوقت الذي يحقق فيه الانسان الحق في الوصول الى القمر ، لا يعطى الحق للقدم الفلسطينية أن تطأ أرضها في مسافة اقرب من بعد القلب عن العينين ؟ في حين تستصرخ الصهيونية الاسرائيلية كل يهود العالم في الهجرة الى فلسطين لتمارس مزيدا من صناعة الالغاء الفلسطيني ! ومن محطة الانطلاق على البلدان العربية لتوفير مزيد من التوسع الصهيوني